

شعيرة الحج

في حياة العلامة سيدي محمد شارف رحمه الله

د. محند أو إدير مشنان | تلميذ الشيخ محمد شارف



تعريف موجز بالشيخ محمد شارف رحمه الله تعالى: (1)

ليسوا سواء، من الناس من يمرُّ على هذه الدنيا دون أن يترك أثراً يذكر، ولا جميلاً يشكر، فحكمه أن يكون نسياً منسياً. ومن الناس من يترك في الحياة بصمات الفضيلة والخير، ومآثر العقل والفكر، فيبقى ذكره خالداً خلود تركته العلمية والأخلاقية.

وسيدي الشيخ محمد شارف (رحمه الله) يرتقي على قمة من قمم العلم النافع، والعمل الصالح، والخلق القويم، والعمل المستقيم، فهو صاحب سجل حافل من العلم والخير، تخرّجت عليه أجيال من الأئمة والأساتذة من بداية الثلاثينيات من القرن العشرين، إلى العشرية الأولى من القرن الواحد والعشرين.

اسمه ونسبه ومولده:

هو الشيخ الإمام العلامة محمد بن عبد القادر بن الحاج المدني، ينتهي نسبه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، وابن فاطمة الزهراء (رضي الله عنها) بنت رسول الله ﷺ.

ولد حوالي سنة 1908م/1325هـ، في مدينة مليانة التابعة حالياً لولاية عين الدفلى، وينتمي إلى عائلة متوسطة الحال، معروفة بالتدين، محافظة على القرآن الكريم مشاركة في العلم.

نشأته العلمية ونشاطه التعليمي:

حفظ القرآن الكريم، وعمره حوالي 12 عاماً، وتلقى مبادئ علوم اللغة والفقه في مسقط رأسه مليانة والمناطق القريبة منها، ثم انتقل إلى الجزائر العاصمة سنة 1932م فواصل تحصيله العلمي، وأخذ عن عدة شيوخ منهم: أبوه الحاج عبد القادر بن الحاج المدني، والشيخ الحاج ابن شهادة، والشيخ احسين بلحاج بوغرقة، والشيخ محمد وكّال المعسكري الأزهرى، والشيخ ابن عودة، والشيخ عبد القادر بن سعدية، والشيخ عبد الله الدراجي، والشيخ نور الدين عبد القادر البسكري، والشيخ بن دالي محمود المعروف بالشيخ كحول.

من المشار إليهم بالبنان، والذين يساهمون في تنشيط الحركة العلمية في الجزائر وخارجها.

مؤلفاته:

لم يهتم الشيخ (رحمه الله) بالتأليف اهتمامه بالتدريس، ومع ذلك فقد ترك عدداً من المصنفات، التي أكرمني الله تعالى بالعناية بها دراسة وتحقيقاً، وطبعت برعاية وزارتي الشؤون الدينية والأوقاف، والثقافة في إطار قسنطينة عاصمة الثقافة العربية، وهي:

1. فتاوى في الدين والأخلاق.
2. الكشكول: نقليات علمية وفقهية وأدبية واجتماعية وغيرها.
3. لغات قبائل العرب في القرآن الكريم.

وكان يحضر الدروس التي كان يلقيها أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في نادي الترقى، من أمثال الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس، والشيخ محمد البشير الإبراهيمي، والشيخ الطيب العقبي.

سخر الشيخ محمد شارف حياته كلها في خدمة الدين والعلم والوطن، وأمضى أكثر من 70 عاماً في التعليم، وشارك في صفوف الثورة التحريرية المباركة، وفي هذا العمر المليء بالجد والاجتهاد، والحب والإخلاص، درس الشيخ فنونا من العلم، كعلوم القرآن، والحديث، والعقيدة، والفقه، وأصوله، والنحو، والصرف، والبلاغة، والعروض، والمنطق، والتاريخ وغير ذلك، وتكوّن عليه عدد لا يحصى من التلاميذ الذين صاروا

(1) راجع تفاصيل ترجمته رحمه الله في مقدمة كتابه "فتاوى في الدين والأخلاق"، وقد تشرفت بدراسته وتحقيقه.

4. مباحث في علم القراءات.

5. دروس في أصول الفقه.

6. السدل والقبض عند السادة المالكية.

7. مناسك الحج والعمرة مع فوائد مفرقة.

8. دروس ومبادئ في الصرف العربي.

9. الأمانة: حقيقتها وأنواعها.

10. مبادئ في فن المنطق.

11. خطب ومقالات وحوارات.

وفاته: بعد أكثر من قرن من حياة العلم النافع والعمل المتواصل في التربية والتدريس والإصلاح والدعوة إلى الله تعالى، انتقل الشيخ (رحمه الله) إلى بارئته، قبيل فجر يوم الخميس 1 صفر 1432 هـ الموافق 6 جانفي 2011م، وكانت جنازته مشهودة حافلة بأعيان البلد من العلماء والأعيان والأئمة والطلبة المريدين والمحبين، وصلى عليه صاحب الفضيلة الشيخ العلامة محمد الطاهر آيت علجت، ودفن في مقبرة العالية في الجزائر العاصمة. تغمده الله برحمته الواسعة، وقدس سرّه، وأسكنه فسيح الجنان، وأسبل عليه عفوه وكرمه، ورفع درجاته في الصالحين، وألحقه بجوار حبيبه محمد ﷺ.

من محطات الشيخ محمد شارف مع شعيرة الحج

ليتنا سألنا الشيخ (رحمه الله) عن هذه المحطات في رحلة الحج، ليسجل لنا ذكرياته وانطباعاته، ويلخص لنا تفاصيل هذه المحطات، ولكن لم تخطر ببالنا هذه الخواطر وقتئذٍ، لاشتغالنا وقتئذٍ بالاستفادة من معين علمه الغزير، وسلوكه الراقي، وأخلاقه العالية، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله، فهذه عدد من المحطات يمكنها أن تشكل صورة عن الشيخ محمد شارف ورحلة الحج.

أولاً: رؤية النبي ﷺ في المنام

ابتدأت إرهاصات رحلة شيخنا مع الحج بطريقة رمزية في روبا منامية، أثناء الحرب العالمية الثانية، حيث زج الاستعمار الفرنسي بالجزائريين ظلماً وعدواناً في هذه الحرب التي لا تعنيهم، وكان الشيخ محمد شارف واحداً من الذين جندهم الاستعمار إجبارياً، فوقع في أسر الجيش الألماني، وفي ظروف الأسر جاءت بشري غالية، حيث رأى النبي ﷺ في المنام، وقد استبشر بذلك

خيراً، وكان عمره حينئذ 33 عاماً، وعن هذه الرؤيا والبشرى يقول (رحمه الله تعالى): "ولقد رأيته ﷺ مرة، وذلك عام 1941م في فرنسا، وقد كنت جندياً، رأيته مع جماعة في زي لباسنا الوطني الجزائري، لبسا هو والجماعة الذين معه عباءات وبرانس وعمائم، فسألت أحدهم عنه ﷺ، فأشار إليه أحدهم، وكان متوسطاً بينهم، فسلمت عليه، ثم انطلقوا وانطلقت معهم، وإذا نحن بأرض الحجاز، فكأننا كنا محرمين بالحج، فانتبهت من نومي، وبني من السرور ما لا مزيد عليه.

وتفاءلت برؤياي هذه أن الله يكتب لي حجة، فلما كانت سنة 1972م، تحققت رؤياي، فحججت حجة الإسلام الأولى والحمد لله، وقد كانت المدة بين رؤياي والسنة التي حججت فيها أربعين سنة ميلادية تقريباً⁽²⁾، واستفدت منها أن تحقيق الرؤيا تكون بعد مدة من الزمن، ولا بد من تحقيقها يقظة، والله موفق".

ثانياً: تعدد حجاته ومشاركته في بعثة الحج الجزائرية

تعددت زيارة شيخنا (رحمه الله) للبقاع المقدسة، وأكرمه الله بالحج ثماني مرات، كان بعضها مع هيئة الإفتاء في بعثة الحج الجزائرية، وكان يختار لهذه المهمة النبيلة لما عرف عنه من المكانة العلمية، والتمكن الفقهي، والالتزام العملي، والتفاني في خدمة الحجاج وإرشادهم، ومن يعرف علم الشيخ وحكمته وحلمه يمكنه أن يتصور



كيفية معاملته للحجاج ولرفقائه في السفر، مع إقباله على الله عابداً متنسكاً، متجملًا بجلاب العبودية لله تعالى.

هذا، وقد أفادني الأخ الفاضل الأستاذ محمد شيخ الإطار السامي في وزارة الشؤون الدينية والأوقاف أن الشيخ (رحمه الله) كان ضمن لجنة الفتوى سنة 1998م في المدينة المنورة مع رفيق دربه الشيخ علي مغربي رحمهما الله، بينما كان في لجنة الفتوى بمكة المكرمة عدد من الشيوخ العلماء ومنهم: الشيخان محمد الطاهر آيت علجت، والحسن الأنصاري شيخ زاوية "أنزجيمير" حفظهما الله تعالى، والشيخ الأطرش السنوسي (رحمه الله).

ويضيف الأستاذ محمد شيخ أنه قبل التروية التحق وفد المدينة بمكة، وقد أصيب الشيخ محمد شارف بوعكة صحية، لم تبقه على نشاطه المعهود، فأكرمه الله تعالى بأحد الحجاج الشباب اسمه "محمد" وعمل في سلك الشرطة، ولم يكن يعرف الشيخ محمد شارف قبل ذلك، ولكن العناية الإلهية ساقته هذا الشاب إلى شيخنا فأحاطه بالعناية والرعاية والخدمة، فقام على شؤونه كلها صغيرها وكبيرها، صباحاً ومساءً، وليلاً ونهاراً.

وقد علق الأستاذ محمد شيخ على هذه الرعاية والملازمة بقوله: "أحسب أنه لا يقومه ولد على والده، ملازمة ورعاية وتفران، كل واحدة كانت مضرب المثل فيه، ومحل حديثنا، وبصورة أدق محل إعجابنا، ونحن نرى خدمة كل واحد يتمنى أن يكون هو صاحبها والقائم عليها، كيف لا وهي خدمة شيخ جليل أفنى عمره في خدمة العلم والدين والوطن، خدمة شيخ جلي الله جانباً من سيرته فراها الناس ببضاء خالصة مخلصه، فأهوت إليها الأفئدة ترجو دعاءها وبركتها.

قد يبدو الأمر لبعض الناس بسيطاً، ولكن البعض الآخر الذين يدركون بأنه ترتيب رباني، يرون فيه المرأة التي يجلي فيها الله مقام عباده المؤمنين المخلصين الصادقين ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [سورة يونس: 63/64]

ثالثاً: تعليمه لمناسك الحج والعمرة

لقد سخر الشيخ حياته في خدمة علم الشرع الشريف طيلة أكثر من 70 عاماً، في مختلف مساجد الجزائر العاصمة، وقد اعتنى الشيخ (رحمه الله) عناية خاصة بالدرس الفقهي في مجالسه العلمية، وخصوصاً من خلال شرح متون فقه السادة المالكية كالمرشد المعين لابن عاشر، والرسالة لابن أبي زيد القيرواني، ومختصر الشيخ خليل، وغيرها من الكتب المهمة، وقد كان الحج حاضراً في كل هذه الدروس كباب من أهم أبواب الفقه الإسلامي، وكانت طريقة الشيخ في التعليم من قبيل السهل الممتنع لما تتميز به من يسر اللغة، وبساطة الطرح، وعمق الفكرة، ودقة المعلومة، فهي دروس يستفيد منها خاصة الطلبة، وينتفع بها عامة الناس على حد سواء.

في سياق هذه الدروس، ما زلتُ أستحضر موقفاً نبيلاً لشيخنا (رحمه الله) له صلة بمدى تعظيمه لشعيرة والحج، ووفائه لرفقاء هذه الرحلة، وذلك أنه كان يزوره رجل ونحن في حلقة الدرس في مقصورة الجامع الكبير في الجزائر العاصمة في نهاية الثمانينيات من القرن الماضي، فكان الشيخ (رحمه الله) يكرم وفادته، ويجلسه أمامه، وسأله أحد الحاضرين يوماً عن هذا الزائر، وكنا نظن أنه أحد قرابته أو أصدقائه، أو تلاميذه القدماء، فأجاب الشيخ بأنه رجل من عامة الناس، إلا أنه كان رفيقه في رحلة الحج، فهو يكرمه تقديراً للعشرة أثناء أداء هذه الشعيرة. ولعمري إنه لصورة جميلة من صور النبل الذي كان يسري في أخلاق شيخنا (رحمه الله) كما كانت تسري الدماء في عروقه.

رابعاً: تأليف كتاب مناسك الحج والعمرة:

وهو منسك لطيف، جمع فيه الشيخ أحكام الحج والعمرة في المذهب المالكي، مع الإشارة والتنبيه إلى المذاهب الفقهية الأخرى ومع إيراد الحجج والأدلة الشرعية، وختمه ببيان مناسك الحج خطوة خطوة وفق المذهب المالكي باعتباره ركيزة المرجعية الدينية الوطنية، وقد تشرفت بالعناية بتحقيق هذا الكتاب

وطبعه عدة مرات، كانت أولها -بحمد لله- في حياة الشيخ (رحمه الله)، وما زلت أستحضر إلا الآن تلك اللحظة التي رأى فيها كتابه هذا مطبوعاً، وما تزال تلك البسمة التي ارتسمت على محياه ماثلة أمامي إلى اليوم، وقد فرحنا يومئذ لفرح الشيخ.

خامساً: إجاباته عن فتاوى السائلين في موضوع الحج

فقد كان الشيخ (رحمه الله) محط أنظار المستفتين في مختلف شؤونهم الدينية، ومن جملة القضايا التي كانت تطرح عليه تلك المتعلقة بمسائل الحج، وكان معظمها يطرح عليه بشكل شفوي مباشر، والقليل منها يرد إليه في شكل أسئلة مكتوبة، ويجيب عنها الشيخ كتابياً إسعافاً لرغبة السائلين، وقد دُوِّنَتْ بعض هذه الأسئلة والأجوبة وعددها 10 في المحور الرابع من كتابه "فتاوى في الدين والأخلاق".

سادساً: كتابة مفكرة وتقييدات في الحج

وقد شكلت المحور الرابع من كتابه "الكشكول"، وهو محور مهم يقع في 27 صفحة، انتقى فيها جملة من الفوائد الموزعة على جانبين اثنين هما:

1. نصوص في فضل الحج والعمرة، واختار فيها جملة من الأحاديث في فضل

الحج والعمرة، وما يتعلق بهما من الأحكام، والأدعية.

2. معالم وأماكن الحج والعمرة: وانتقى فيها معلومات حول البلدات بين جدة ومكة المكرمة، والمسافات داخل مكة المكرمة، وحجر إسماعيل، والدور القائمة على نفقة المحسنين في مكة المكرمة، والآثار في منى، وموقع المدينة المنورة، ومزاراتها، وآبارها، وعيونها، وبساتينها، ومزروعاتها، ووديانها، وأهم العائلات القديمة فيها، والدور القائمة على نفقة المحسنين في المدينة النبوية الشريفة

وأود أن أورد قصة طريفة رواها لي الدكتور أبو بكر بوسام، وتتعلق بالفوائد التي كان يجنيها الشيخ (رحمه الله) حول الحج، ويسجلها في دفاتره وأوراقه، ففي إحدى حجاته مع بعثة الحج الجزائرية، كان رفيقه في الغرفة أحد العلماء الجزائريين المبرزين وهو الشيخ المبروك عوادي، (وكان ظاهري المذهب)، فلما رأى الشيخ المبروك العوادي بعض الأوراق والدفاتر التي صاحبها معها الشيخ وفيها بعض الفوائد المرتبطة بالحج، قال لشيخنا مازحاً: "الناس يصحبون معهم الكتب والمجلدات، وأنت تصحب هذه الأوراق والدفاتر!!!!".

ولم تمر إلا مدة قصيرة حتى وردت على لجنة الفتوى نازلة استعصت عليهم، ووجدوا جوابها مبنوياً عند الشيخ محمد شارف (رحمه الله) في ثنايا تلك الدفاتر والأوراق.

وبعد، فقد كانت هذه نبذة عن الشيخ سيدي محمد بن عبد القادر شارف (رحمه الله)، ورحلة الحج إلى بيت الله الحرام، تعريفاً بإسهام أحد علماء الجزائر في خدمة شعيرة الحج، توجيهاً، وإرشاداً، وتأليفاً، وكيف كان منطلق هذه الرحلة من رؤية النبي ﷺ في المنام، وفي هذا من الدلالة الرمزية على مكانة الشيخ وقيمه العلمية والروحية ما لا يخفى. أرجو أن تكون نافعة للقراء الكرام، ملتصقة منهم الدعاء لشيخنا (رحمه الله) بالرحمة والمغفرة والرضوان ورفعة الدرجات عند الله تعالى.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

